ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾ ﴾

وهذا احتياط منهم للدين ، وحماية للعقيدة التى فَرُّوا بها . فإن يرجموكم فسينتصرون عليكم فى الدنيا ، إنما ستأخذون الآخرة ، وإن ردوكم إلى دينهم ، فلن تفلحوا فى الدنيا ولا فى الآخرة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا[1] عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾ ﴾

فى قوله تعالى ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا .. ﴿٢١﴾ ﴾ [الكهف] يقيم من أهل الكهف دليلاً على قيام الساعة والبعث بعد الموت ، فها أنتم ما زلتم على قَيْد الحياة وفى سَعَة الدنيا ، ومع ذلك أنامكم الله هذه النَّوْمة الطويلة ثم بعثكم ، وقد عُثِر عليهم ، وما زالت فيهم حياة .

ثم يقول تعالى : ﴿ إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ[2] فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا

---

(١) أعثره على الأمر : أطلعه عليه . قال تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ .. ﴿٢١﴾ ﴾ [الكهف] . أى : جعلنا الناس يطلعون عليهم ويعرفون كهفهم وقصتهم . [القاموس القويم ٢/٧] .

(٢) قال عكرمة : كان منهم طائفة قد قالوا تبعث الأرواح ولا تبعث الأجساد فبعث الله أهل الكهف حجة ودلالة وآية على ذلك . وذكر غير واحد من السلف أنه كان قد حصل لأهل ذلك الزمان شك فى البعث وفى أمر القيامة . (تفسير ابن كثير ٣/٧٧) .

رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ .. (٢١)﴾ [الكهف] حدث هذا التنازع من الجماعة الذين عثروا عليهم، ويبدو أنهم كانوا على مسْحة من الدين ، فأرادوا أنْ يحافظوا على هذه الآية الإلهية ، ويصحّ أنهم بمجرد أنْ عثروا عليهم قضى أجلهم فماتوا .

وهذه مسألة يجب أن يُؤرّخ لها ، وأن تخلد ؛ لذلك جعلوها مثلاً شَرُوداً للعالم كله لتُعرف قصة هؤلاء الفتية الذين ضَحَّوْا في سبيل عقيدتهم وفَرُّوا بدينهم من سَعَة الحياة إلى ضيق الكهف ؛ ليكونوا مثلاً لكل أهل العقيدة ، ودليلاً على أن الله تعالى ينصر أهله ويدافع عنهم ويُخلِّد ذكراهم إلى قيام الساعة .

لذلك قال بعضهم لبعض : ﴿ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا .. (٢١)﴾ [الكهف] أي : مطلق البنيان ، فعارضهم آخرون بأن البناء يجب أن يكون مسجداً ﴿قَالَ الَّذِينَ[1] غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ[2] عَلَيْهِم مَّسْجِدًا (٢١)﴾ [الكهف] ليكون موضعاً للسجود لله وللعبادة ليتناسب مع هذه الآية العظيمة الخالدة .

ثم تحدَّث الحق سبحانه عن الاختلافات التي نشأت عن فضول الناس لمعرفة عدد أهل الكهف ، وما يتعلَّق بهم من تفصيلات هي في حقيقتها عِلْم لا ينفع وجَهْل لا يضر ، فقال تعالى :

---

(١) حكى ابن جرير في القائلين ذلك قولين : أحدهما : إنهم المسلمون منهم . والثاني : أهل الشرك منهم . قال ابن كثير في تفسيره (٧٨/٣) : « الظاهر أن الذين قالوا ذلك هم أصحاب الكلمة والنفوذ » .

(٢) قال القرطبي في تفسيره (٤١١٠/٥) : « تنشأ هنا مسائل ممنوعة وجائزة ، فاتخاذ المساجد على القبور والصلاة فيها والبناء عليها إلى غير ذلك مما تضمنته السنة من النهي عنه ممنوع لا يجوز . وروى الصحيحان عن عائشة أن أم حبيبة وأم سلمة ذكرتا كنيسة رأينها بالحبشة فيها تصاوير لرسول الله ﷺ ، فقال رسول الله ﷺ : « إن أولئك إذا كان فيهم الرجل الصالح فمات بنوا على قبره مسجداً وصوروا فيه تلك الصور أولئك أشرار الخلق عند الله تعالى يوم القيامة » . لفظ مسلم .

﴿سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ[1] رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًۢا بِٱلْغَيْبِ ۖ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ۗ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾﴾

لقد اختلف القوم فى عدد أهل الكهف ، منهم مَنْ قال : ثلاثة رابعهم كلبهم . ومنهم مَنْ قال : خمسة سادسهم كلبهم ، وعلَّق الحق سبحانه على هذا القول بأنه-(رجماً بالغيب) ؛ لأنه قَوْل بلا علْم ، مما يدلُّنا على خطئه ومخالفته للواقع . ومنهم مَنْ قال : سبعة وثامنهم كلبهم ، ولم يُعلِّق القرآن على هذا الرأى مما يدلُّ على أنه الأقرب للصواب .

ثم يأتى القول الفَصْل فى هذه المسألة : ﴿قُل رَّبِّى أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ قَلِيلٌ .. ﴿٢٢﴾﴾ [الكهف] فلم يُبيِّن لنا الحق سبحانه عددهم الحقيقى ، وأمرنا أن نترك هذا لعلمه سبحانه ، ولا نبحث فى أمر لا طائل منه ، ولا فائدة من ورائه ، فالمهم أنْ يثبت أصْل القصة وهو : الفتية الأشدَّاء فى دينهم والذين فَرُّوا به وضَحَّوْا فى سبيله حتى لا يفتنهم أهل الكفر والطغيان ، وقد لجأوا إلى الكهف ففعل الله بهم ما فعل ، وجعلهم آيةً وعبرةً ومثَلاً وقدْوة .

---

(١) قيل : المراد بهم النصارى ، فإن قوماً منهم حضروا النبى ﷺ من نجران فجرى ذكر أصحاب الكهف فقالت اليعقوبية : كانوا ثلاثة رابعهم كلبهم . وقالت النسطورية : كانوا خمسة سادسهم كلبهم . وقال المسلمون : كانوا سبعة ثامنهم كلبهم . وقيل : هو إخبار عن اليهود الذين أمروا المشركين بمسألة النبى ﷺ عن أصحاب الكهف . ذكره القرطبى فى تفسيره (٤١١٢/٥) .

أما فرعيات القصة فهى أمور ثانوية لا تُقدِّم ولا تُؤخِّر ؛ لذلك قال تعالى بعدها : ﴿فَلا تُمَارِ فِيهِمْ إِلاَّ مِرَاءً ظَاهِرًا .. (٢٢)﴾ [الكهف] أى : لا تجادل فى أمرهم .

ثم يأتى فضول الناس ليسألوا عن زمن القصة ومكانها ، وعن أشخاصها وعددهم وأسمائهم ، حتى كلبهم تكلموا فى اسمه . وهذه كلُّها أمور ثانوية لا تنفع فى القصة ولا تضرُّ ، ويجب هنا أن نعلم أن القَصَص القرآنى حين يبهم أبطاله يبهمهم لحكمة ، فلو تأملتَ إبهام الأشخاص فى قصة أهل الكهف لوجدته عَيْن البيان لأصل القصة ؛ لأن القرآن لو أخبرنا مثلاً عن مكان هؤلاء الفتية لقال البعض : إن هذا الحدث من الفتية خاص بهذا المكان ؛ لأنه كان فيه قدر من حرية الرأى .

ولو حدد زمانهم لَقال البعض : لقد حدث ما حدث منهم ؛ لأن زمانهم كان من الممكن أن يتأتَّى فيه مثل هذا العمل ، ولو حدد الأشخاص وعيَّنهم لقالوا : هؤلاء أشخاص لا يتكررون مرة أخرى .

لذلك أبهمهم الله لتتحقَّق الفائدة المرجوَّة من القصة ، أبهمهم زماناً ، وأبهمهم مكاناً ، وأبهمهم عدداً ، وأبهمهم أشخاصاً ليشيع خبرهم بهذا الوصف فى الدنيا كلها لا يرتبط بزمان ولا مكان ولا أشخاص ، فحمل راية الحق ، والقيام به أمر واجب وشائع فى الزمان والمكان والأشخاص ، وهذا هو عَيْن البيان للقصة ، وهذا هو المغزى من هذه القصة .

وانظر إلى قوله تبارك وتعالى : ﴿قَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ .. (٢٨)﴾ [غافر]

هكذا (رَجُلٌ مُؤْمِنٌ) دون أن يذكر عنه شيئاً ، فالمهم أن الرجولة فى الإيمان ، أياً كان هذا المؤمن فى أىّ زمان ، وفى أىّ مكان ، وبأىّ اسم ، وبأىّ صفة .

كذلك فى قوله تعالى : ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ .. ⦗١٠⦘﴾ [التحريم] ولم يذكر عنهما شيئاً ، ولم يُشخِّصهما ؛ لأن التشخيص هنا لا يفيد ، فالمهم والمراد من الآية بيانُ أن الهداية بيد الله وحده ، وأن النبى المرسل من الله لم يستطع هداية زوجته وأقرب الناس إليه ، وأن للمرأة حريةً عَقَدية مُطْلقة .

و كذلك فى قوله :﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ .. ⦗١١⦘﴾ [التحريم] ولم يذكر لنا مَنْ هى ، ولم يُشخِّصها ؛ لأن تعيُّنها لا يُقدِّم ولا يُؤخِّر ، المهم أن نعلم أن فرعونَ الذى ادَّعى الألوهية وبكل جبروته وسلطانه لم يستطع أنْ يحمل امرأته على الإيمان به .

إذن : العقيدة والإيمان أمر شخصىّ قلبى ، لا يُجبر عليه الإنسان ، وها هى امرأة فرعون تؤمن بالله وتقول : ﴿رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ⦗١١⦘﴾ [التحريم]

أما فى قصة مريم ، فيقول تعالى : ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ .. ⦗١٢⦘﴾ [التحريم] فشخَّصها باسمها ، بل واسم أبيها ، لماذا ؟ قالوا : لأن الحدث الذى ستتعرَّض له حَدَثٌ فريد وشىء خاصٌ بها لن يتكرر فى غيرها ؛ لذلك عيَّنها الله وعرَّفها ، أما الأمر العام الذى يتكرر ، فمن الحكمة أنْ يظلَّ مُبْهماً غير مرتبط بشخص أو زمان أو مكان ، كما فى قصة أهل الكهف ، فقد أبهمها الحق سبحانه لتكون مثالاً وقُدْوة لكل مؤمن فى كل زمان ومكان .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ ﴾

وتتجلى فى هذه الآية رحمة الله بالمحبوب محمد ﷺ فلم يُرِدْ سبحانه وتعالى أن يصدم رسوله بمسألة المخالفة هذه ، بل أعطاه ما أراد ، وأجابه إلى ما طلب من مسألة أهل الكهف ، ثم فى النهاية ذكَّره بهذه المخالفة فى أسلوب وَعْظ رقيق : ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ.. ﴿٢٤﴾ ﴾ [الكهف]

وقد سبق أنْ ذكرنا أنه ﷺ حينما سأله القوم عن هذه القصة قال لهم : سأجيبكم غداً ولم يَقُلْ : إن شاء الله . فلم يعاجله الله تعالى بالعتاب ، بل قضى له حاجته ، ثم لفتَ نظره إلى أمر هذه المخالفة ، وهذا من رحمة الله برسوله ﷺ .

كما خاطبه بقوله : ﴿ عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ .. ﴿٤٣﴾ ﴾ [التوبة]

فقدَّم العفو أولاً وقرَّره ؛ لأن هذه المسألة منتهية ومعلومة للرسول ، ثم عاتبه بعد ذلك . كما لو طلب منك شخص عَوْناً أو مساعدة ، وقد سبق أنْ أساء إليك ، فمن اللياقة ألاَّ تصدمه بأمر الإساءة ، وتُذكِّره به أولاً ، بل اقْضِ له حاجته ، ثم ذكِّره بما فعل .

والحق سبحانه يقول :

﴿ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾ ﴾

أى : على فَرْض أنك نسيت المشيئة ساعة البَدْء فى الفعل ، فعليك أن تعيدها ثانية لتتدارك ما حدث منك من نسيان فى بداية الأمر .

وقوله تعالى : ﴿ وَقُلْ عَسَىٰ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾ ﴾ [الكهف] أى : يهدينى ويعيننى ، فلا أنسى أبداً ، وأن يجعل ذكْره لازمة من لوازمى فى كل عمل من أعمالى فلا أبدأ عملاً إلا بقوْل : إنْ شاء الله .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا ﴿٢٥﴾ ﴾

وهذه الآية تعطينا لقطةً من المذكرة التفصيلية التى أعطاها الله تعالى لرسوله ﷺ عن أهل الكهف ، وهى تُحدِّد عدد السنين التى قضاها الفتْية فى كهفهم بأنها ثلاثمائة سنة ، وهذا هو عددها الفعلىّ بحساب الشمس .

لذلك ؛ فالحق سبحانه لم يَقُلْ ثلاثمائة وتسعاً ، بل قال : ﴿ وَازْدَادُوا تِسْعًا ﴿٢٥﴾ ﴾ [الكهف] ولما سمع أهل الكتاب هذا القول اعترضوا وقالوا : نعرف ثلاثمائة سنة ، ولكن لا نعرف التسعة ؛ ذلك لأن حسابهم لهذه المدة كان حساباً شمسياً .

ومعلوم أن الخالق سبحانه حينما خلق السموات والأرض قسَّم الزمن تقسيماً فلكياً ، فجعل الشمس عنواناً لليوم ، نعرفه بشروقها وغروبها ، ولما كانت الشمس لا تدلّنا على بداية الشهر جعل الخالق

سبحـانه الشهر مـرتبطاً بالقمر الذى يظهر هلالاً فى أول كـل شهر ، وقد قال تعالى : ﴿ إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ .. (٣٦) ﴾ [التوبة]

فلو حسبتَ الثلاثمائة سنة هذه بالحساب القمرى لوجدتها ثلاثمائة سنة وتسعاً ، إذن : هى فى حسابكم الشمسى ثلاثمائة سنة ، وفى حسابنا القمرى ثلاثمائة وتسعاً . ونعرف أن السنة الميلادية تزيد عن الهجرية بأحد عشر يوماً تقريباً فى كل عام .

ومن حكمة الخالق سبحـانه أن ترتبط التوقيتات فى الإسلام بالأهلة ، ولك أن تتصور لو ارتبط الحج مثلاً بشهر واحد من التوقيت الشمسى فى طقس واحد لا يتغير ، فإنْ جاء الحج فى الشتاء يظل هكذا فى كل عام ، وكم فى هذا من مشقة على مَنْ لا يناسبهم الحج فى فصل الشتاء . والأمر كذلك فى الصيام .

أما فى التوقيت القمرى فإن هذه العبادات تدور بمدار العام ، فتأتى هذه العبادات مرة فى الصيف ، ومرة فى الخريف ، ومرة فى الشتاء ، ومرة فى الربيع ، فيؤدى كل إنسان هذه العبادة فى الوقت الذى يناسبه ؛ لذلك قالوا : يا زمن وفيك كل الزمن .

والمتأمل فى ارتباط شعائر الإسلام بالدورة الفلكية يجد كثيراً من الآيات والعجائب ، فلو تتبعتَ مثلاً الأذان للصلاة فى ظل هذه الدورة لوجدت أن كلمة « الله أكبر » نداء دائم لا ينقطع فى ليل أو نهار من مُلْك الله تعالى ، وفى الوقت الذى تنادى فيه « الله أكبر » يُنادى آخر « أشهد ألا إله إلا الله » وينادى آخر « أشهد أن محمداً رسول الله » وهكذا دواليك فى منظومة لا تتوقف .

وكذلك فى الصلاة ، ففى الوقت الذى تصلى أنت الظهر ، هناك آخرون يُصلّون العصر ، وآخرون يُصلُّون المغرب ، وآخرون يُصلّون العشاء ، فلا يخلو كَوْنُ الله فى لحظة من اللحظات من قائم أو راكع أو ساجد . إذن : فلفظ الأذان وأفعال الصلاة شائعة فى كُلِّ أوقات الزمن ، وبكُلِّ ألوان العبادة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟ ۖ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ ۚ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ ﴾

الأسلوب فى قوله تعالى : ﴿ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ .. ﴿٢٦﴾ ﴾ [الكهف] أسلوب تعجُّب أى : ما أشدّ بصره ، وما أشدّ سمعه ؛ لأنه البصر والسمع المستوعب لكلِّ شىء بلا قانون[1] .

وقوله : ﴿ مَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ ﴾ [الكهف] كان الحق سبحانه وتعالى يُطمئن عباده بأن كلامه حَقٌّ لا يتغير ولا يتبدل ؛ لأنه سبحانه واحد أحد لا شريك له يمكن أن يُغيِّر كلامه .

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٤١١٨/٥) : « ويحتمل أن يكون المعنى « أبصر به » أى : بوحيه وإرشاده هداك وحججك والحق من الأمور ، وأسمع به العالم ، فيكونان أمرين لا على وجه التعجب » .

ثم يقول الحق سبحانه لنبيه محمد ﷺ :

﴿ وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾ ﴾

أى بعد هذه الأسئلة التى سألك كفار مكة إياها ، وأخبرك الله بها فأجبتهم ، اعلم أن لك رباً رفيقاً بك ، لا يتخلّى عنك ولا يتركك لكيدهم ، فإنْ أرادوا أنْ يصنعوا لك مأزقاً أخرجك الله منه ، وإياك أنْ تظنَّ أن العقبات التى يقيمها خصومك ستُؤثّر فى أمر دعوتك .

وإنْ أبطأتْ نُصْرة الله لك فاعلم أن الله يريد أنْ يُمحِّص جنود الحق الذين يحملون الرسالة إلى أن تقوم الساعة ، فلا يبقى فى ساحة الإيمان إلا الأقوياء الناضجون ، فالأحداث والشدائد التى تمرُّ بطريق الدعوة إنما لتغربل أهل الإيمان حتى لا يصمد فيها إلا مَنْ هو مأمون على حَمْل هذه العقيدة .

وقوله : ﴿ لا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ .. ﴿٢٧﴾ ﴾ [الكهف] لأن كلمات الله لا يستطيع أحد أنْ يُبدِّلها إلا أنْ يكون معه سبحانه إله آخر ، فما دام هو سبحانه إلهاً واحداً لا شريك له ، فاعلم أن قوله الحق الذى لا يُبدَّل ولا يُغيَّر ﴿ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾ ﴾ [الكهف] أى : ملجأ تذهب إليه ؛ لأن حَسْبك الله وهو نِعْم الوكيل ، كما قال تعالى :

﴿ أَوَ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ ﴾ [العنكبوت]

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا (٢٨) ﴾

نزلتْ هذه الآية في « أهل الصُّفَّة[1] » وهم جماعة من أهل الله انقطعوا للعبادة فتناولتهم ألسنة الناس واعترضوا عليهم ، لماذا لا يعملون ؟ ولماذا لا يشتغلون كباقي الناس ؟ بل وذهبوا إلى رسول الله ﷺ يقولون : نريد أن تلتفت إلينا ، وأن تترك هؤلاء المجاذيب ، فأنزل الله تعالى : ﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم .. (٢٨) ﴾ [الكهف]

لذلك علينا حينما نرى مثل هؤلاء الذين نُسمِّيهم المجاذيب الذين انقطعوا لعبادة الله أن لا نحتقرهم ، ولا نُقلِّل من شأنهم أو نتهمهم ؛ لأن الله تعالى جعلهم موازين للتكامل في الكون ، ذلك أن صاحب

---

(١) سبب نزول الآية : عن سلمان الفارسي قال : جاءت المؤلفة القلوب إلى رسول الله ﷺ عيينة بن حصن والأقرع بن حابس وذووهم ، فقالوا : يا رسول الله إنك لو جلست في صدر المجلس ونحيت عنا هؤلاء وأرواح جبابهم يعنون سلمان وأبا ذر وفقراء المسلمين ، وكانت عليهم جباب الصوف لم يكن عليهم غيرها جلسنا إليك وحادثناك وأخذنا عنك ، فأنزل الله تعالى : ﴿ وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا (٢٧) وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ .. (٢٨) ﴾ [الكهف] . حتى بلغ ﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا .. (٢٩) ﴾ [الكهف] . يتهددهم بالنار ، فقام النبي ﷺ يلتمسهم حتى إذا أصابهم في مؤخر المسجد يذكرون الله تعالى قال : الحمد لله الذي لم يمتني حتى أمرني أن أصبر نفسي مع رجال من أمتي ، معكم المحيا ومعكم الممات » أخرجه الواحدي النيسابوري في « أسباب النزول » ص ١٧١ . وكذا القرطبي في تفسيره (٥/٤١٢١) .

الدنيا الذى انغمس فيها وعاش لها وباع دينه من أجل دُنْياه حينما يرى هذا العابد قد نفض يديه من الدنيا ، وألقاها وراء ظهره ، وراح يستند إلى حائط المسجد مُمدّداً رجلاً ، لا تعنيه أمور الدنيا بما فيها .

ومن العجيب أن صاحب الدنيا هذا العظيم صاحب الجاه تراه إنْ أصابه مكروه أو نزلتْ به نازلة يُهْرَع إلى هذا الشيخ يُقبّل يديه ويطلب منه الدعاء ، وكأن الخالق سبحانه جعل هؤلاء المجاذيب ليرد بهم جماح أهل الدنيا المنهمكين فى دوامتها المغرورين بزهرتها .

وأيضاً ، كثيراً ما ترى أهل الدنيا فى خدْمة هؤلاء العباد ، ففى يوم من الأيام قُمْنا لصلاة المغرب فى مسجد سيدنا الحسين ، وكان معنا رجل كبير من رجال الاقتصاد ، فإذا به يُخرِج مبلغاً من المال ويطلب من العامل صرفه إلى جنيهات ، فأتى العامل بالمبلغ فى صورة جنيهات من الحجم الصغير ، فإذا برجل الاقتصاد الكبير يقول له : لا ، لا بُدَّ من جنيهات من الحجم الكبير ؛ لأن فلاناً المجذوب على باب الحسين لا يأخذ إلا الجنيه الكبير ، فقلت فى نفسى : سبحان الله مجذوب على باب المسجد ويشغل أكبر رجل اقتصاد فى مصر ، ويحرص الرجل على إرضائه ويعطيه ما يريد .

ثم يقول تعالى : ﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ .. (٢٨)﴾ [الكهف] أى : اجعل عينيك فيهم ، ولا تصرفها عنهم إلى غيرهم من أهل الدنيا ؛ لأن مَدد النظرة من رسول الله ﷺ زاد للمؤمن ﴿تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا .. (٢٨)﴾ [الكهف] لأنك إنْ فعلتَ ذلك وانصرفتَ عنهم ، فكأنك تريد زينة الحياة الدنيا وزخارفها .

وفى أمر الرسول ﷺ بملازمة أهل الصُّفَّة وعدم الانصراف عنهم إلى أهل الدنيا ما يُقوِّى هؤلاء النفر من أهل الإيمان الذين جعلوا دَيْدنهم وشاغلهم الشاغل عبادة الله والتقرُّب إليه .

لكن ، هل المطلوب أن يكون الناس جميعاً كأهل الصُّفَّة منقطعين للعبادة ؟ بالطبع لا ، فالحق سبحانه وتعالى جعلهم بين الناس قِلَّة ، فى كل بلد واحد أو اثنان ليكونوا أُسْوة تُذكِّر الناس وتكبح جماح تطلّعاتهم إلى الدنيا .

ومن العجيب أن ترى البعض يدَّعى حال هؤلاء ، ويُوهِم الناس أنه مجذوب ، وأنه وَلِىٌّ نَصْبًا واحتيالاً ، والشيء لا يُدَّعَى إلا إذا كانت من ورائه فائدة ، كالذى يدَّعى الطب أو يدَّعى العلم لما رأى من مَيْزات الطبيب والعالم . فلما رأى البعض حال هؤلاء المجاذيب ، وكيف أنهم عزفوا عن الدنيا فجاءتْ إليهم تدقُّ أبوابهم ، وسعى إليهم أهلها بخيراتها ، فضلاً عَمَّا لهم من مكانة ومنزلة فى النفس ومحبة فى القلوب .

فلماذا - إذنْ - لا يدعون هذه الحال ؟ ولماذا لا ينعمون بكل هذه الخيرات دون أدنى مجهود ؟ وما أفسد على هؤلاء العباد حالَهم ، وما خاض الناس فى سيرتهم إلا بسبب هذه الطبقة الدخيلة المدَّعية التى استمرأتْ حياة الكسل والهوان .

ثم يقول تعالى : ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا .. (٢٨)﴾ [الكهف] لأنه لا يأمرك بالانصراف عن هؤلاء والالتفات إلى أهل الدنيا إلا مَنْ غفل عن ذكر الله ، أما مَن اطمأن قلبه إلى ذِكْرنا وذاق حلاوة

الإيمان فإنه لا يأمر بمثل هذا الأمر ، بل هو أقرب ما يكون إلى هؤلاء المجاذيب الأولياء من أهل الصُّفَّة ، بل وربما تراوده نفسه أن يكون مثلهم ، فكيف يأمر بالانصراف عنهم ؟

وقد أوضح النبى ﷺ الموقف من الدنيا فى قوله : « أوحى الله إلى الدنيا : مَنْ خدمني فاخدميه ، ومَنْ خدمك فاستخدميه... »[1] فالدنيا بأهلها فى خدمة المؤمن الذى يعمر الإيمانُ قلبه ، وليس فى باله إلا الله فى كل ما يأتى أو يَدَع .

وقوله تعالى : ﴿وَاتَّبَعَ هَوَاهُ .. (٢٨)﴾ [الكهف] أى : أن هذا الذى يُحرِّضك على أهل الصُّفَّة ما غفل قلبه عن ذكرنا إلا لأنه سار خلف هواه ، فأخذه هواه وألهاه عن ذكر الله ، فما دام قد انشغل بشىء يوافق هواه فلن يهتم بمطلوب الله ، إنه مشغول بمطلوب نفسه ؛ لذلك يقول ﷺ : « لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبَعاً لما جئتُ به »[2].

فالمؤمن الحق سليم الإيمان مَنْ كان هواه ورغبته موافقة لمنهج الله ، لا يحيد عنه ، وقد قال الحق سبحانه وتعالى : ﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ .. (٧١)﴾ [المؤمنون]

---

(١) أورده الشوكانى فى « الفوائد المجموعة فى الأحاديث الموضوعة » (ص ٢٣٨) وقال : « رواه الخطيب عن ابن مسعود . وفى إسناده : الحسين بن داود البلخى . والحديث موضوع » . قال الكنانى فى « تنزيه الشريعة » (٣٠٣/٢) : « تعقب بأن له شاهداً من حديث النعمان بن بشير . أخرجه البيهقى فى الشُّعَب وقال : لم نكتبه إلا بهذا الإسناد وفيهم مجاهيل » قال الخطيب فى تاريخ بغداد (٤٤/٨) : « الحسين بن داود ليس بثقة ، حديثه موضوع » .

(٢) أخرجه ابن أبى عاصم فى كتاب « السنة » (١٢/١) من حديث عبد الله بن عمرو ، وأورده ابن رجب الحنبلى فى « جامع العلوم والحكم » (ص٤٦٠) وضعَّفه .

وقوله تعالى : ﴿وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ۝٢٨﴾ [الكهف] أى : كان أمره ضياعاً وهباءً ، فكأنه أضاع نفسه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا(١) وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ(٢) يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ۝٢٩﴾

قوله تعالى : ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ .. ۝٢٩﴾ [الكهف] أى : قُلِ الحق جاء من ربكم ، واختار كلمة الرب ولم يَقُلْ من الله ، لأن الكل معتقد أن الرب هو الذى خلق ، كما فى قوله تعالى : ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ۝٨٧﴾ [الزخرف]

وقوله : ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ .. ۝٢٥﴾ [لقمان]

فمعنى : ﴿مِن رَّبِّكُمْ .. ۝٢٩﴾ [الكهف] أى : بإقراركم أنتم ، فالذى خلقكم وربّاكم وتعهدكم هو الذى نزَّل لكم هذا الحق و ﴿رَّبِّكُمْ .. ۝٢٩﴾ [الكهف] أى : ليس ربى وحدى ، بل ربكم وربّ الناس جميعاً .

---

(١) السرادق : الخيمة وكل ما أحاط بالشىء أو ما يمد فوق صحن البيت . والمعنى هنا أى أنهم لا نجاة لهم فقد أحاط بهم سرادق النار فلا يفلتون منه . [القاموس القويم ٣٠٩/١] .

(٢) قال ابن عباس : المهل ماء غليظ مثل دردى الزيت . وقال مجاهد : القيح والدم . وقال الضحاك : ماء أسود . وقال أبو عبيدة : هو كل ما أذيب من جواهر الأرض من حديد ورصاص ونحاس ، فتموج بالغليان ، فذلك المهل . [تفسير القرطبى ٤١٢٤/٥] .

والحق : هو الشيء الثابت ، وما دام من الله فلن يُغيِّره أحد ؛ لأن الذي يتغير كلامه هو الذي يقضي شيئاً ويجهل شيئاً مُقبلاً ، وبعد ذلك يُعدِّل ، فالحق من الله لأنه سبحانه لا يَخْفَى عليه شيء ولا يَعْزُب عن علمه شيء ، لذلك لا استدراك على حُكْم من أحكامه من أحد من خلقه .

فالربوبية عطاء ، فربك الذي خلقك وأمدَّك بالنعم ، وهو الذي يُربّيك كما يُربِّي الوالد ولده ؛ لذلك لم يعترض على الربوبية أحد ، أما الألوهية فمطلوبها تكليف : افعل كذا ، ولا تفعل كذا ، فخاطبهم بالربوبية التي فيها مصلحتهم ، ولم يخاطبهم بالألوهية التي تُقيِّد اختياراتهم والإنسان بطبعه لا يميل إلى ما يُقيِّد اختياراته ؛ لذلك يلجأون إلى عبادة آلهة أخرى ؛ لأنها ليس لها مطلوبات .

فالذي يعبد الشمس أو الصنم أو غيره : بماذا أمرك معبودك ؟ وعمَّا نهاك ؟ فما العبادة إلا طاعة عابد لمعبود ، إذن : فلهم أن يقولوا : نِعْمَ هذا الإله ، ونِعْم هذا الدين ؛ لأنه يتركني بحريتي أفعل ما أريد .

لذلك ؛ نجد الذين يدَّعُون ألوهية ، أو يدعون نُبوّة دائماً يميلون إلى تخفيف المناهج ؛ لأنهم يعلمون أن المناهج السماوية تصعُب على الناس ؛ لأن فيها حَجْراً على حرية حركتهم وحرية اختياراتهم ، فلما ادَّعى مسيلمة النبوة رأى الناس تتبرم من الزكاة فأسقطها عنهم ، وكذلك لما ادعتْ سجاح[1] النبوة خففتْ الصلاة ، وإلا ،

---

(١) هي : سجاح بنت الحارث بن سويد التميمية ، من بني يربوع ، متنبئة مشهورة ، كانت شاعرة أديبة عارفة بالأخبار ، ادعت النبوة بعد وفاة النبي ﷺ ، كان لها علم بالكتاب أخذته عن نصارى تغلب ، نزلت اليمامة واجتمعت بمسيلمة وتزوجها ، ثم بلغها مقتل مسيلمة ، فأسلمت وهاجرت إلى البصرة وتوفيت فيها ، وصلى عليها سمرة بن جندب والي البصرة لمعاوية عام ٥٥ هـ . [الأعلام للزركلي ٣/٧٨] .

فكيف سيجمعون الناس من حولهم ؟

وما أشبه مُدَّعي الأمس بمدعي اليوم الذين يبيعون الدين بعَرَض من الدنيا ، فيُفْتون الناس بتحليل ما حرَّم الله ، مثل الاختلاط وغيره من القضايا حتى هان أمر الدين على الناس . والدين وإنْ كان فطرياً في النفس الإنسانية إلا أن الإنسان يميل إلى مَنْ يُخفِّف عنه ، وتعجب حين ترى بعض المثقفين وحملة الشهادات يذهبون إلى الدجالين ويُصدِّقونهم ، وترى الواحد منهم يُكذِّب نفسه أنه على دين يريحه ، ويفعل في ظله ما يريد .

إذن : ما دُمْتم مؤمنين بربوبية خلق وربوبية إمداد وإنعام ، فعليكم أن تؤمنوا بما جاء من ربكم ، كما نقول في المثل : (اللى ياكل لقمتى يسمع كلمتى) ، ومع ذلك ورغم فضل الله ونعمه عليهم قُلْ لهم : لا جبرَ في الإيمان ﴿فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ .. (٢٩)﴾ [الكهف] لأن منفعة الإيمان عائدة عليكم أنتم .

وقد جاء في الحديث القدسي[1] : « إنكم لن تملكوا نفعي فتنفعوني ، ولن تملكوا ضُرِّي فتضروني ، ولو أن أوَّلكم وآخركم ، وحيكم وميتكم ، وشاهدكم وغائبكم اجتمعوا على أتْقَى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في مُلْكي شيئاً ، ولو أن أولكم وآخركم ، وحيكم وميتكم ، وشاهدكم وغائبكم اجتمعوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئاً » .

« ولو أن أولكم وآخركم اجتمعوا في صعيد واحد ، وسألني كُلٌّ مسألته فأعطيتها له ما نقص ذلك مما عندي إلا كمغْرِز إبرة إذا

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه بنحوه (٢٤٩٥) ، وأحمد في مسنده (٥/١٥٤ ، ١٧٧) من حديث أبي ذر رضي الله عنه .

غمسها أحدكم فى بحر ، وذلك أنى جواد واجد ماجد ، عطائى كلام وعذابى كلام ، إنما أمرى لشىء إذا أردته أنْ أقولَ له كُنْ فيكون » .

إذن : فائدة الإيمان تعود على المؤمن ، كما قال تعالى : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا .. (٤٦) ﴾ [فصلت] لكنى أحب لخَلْقى أن يكونوا دائماً على خير منى ، فأنا أعطيهم خير الدنيا ، وأحب أيضاً أن أعطيهم خير الآخرة .

جاءتْ هذه الآية بعد قوله تعالى : ﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ .. (٢٨) ﴾ [الكهف]

وكان خصوم الإسلام حينما يَروْنَ الدعوة تنتشر شيئاً فشيئاً يحاولون إيقافها ، لا من جهتهم بالعدوان على مَنْ يؤمن ، ولكن من جهته ﷺ ، فأرسلوا إليه وَفْداً ، قالوا : يا محمد إنّا بعثنا إليك لنُعْذِرَ فيك ، لقد أدخلتَ على قومك ما لم يُدخلْه أحد قبلك ، شتمتَ آلهتنا وسفَّهْتَ أحلامنا وسببْتَ ديننا ، فإنْ كنت تريد مالاً جمعنا لك المال حتى تصير أغنانا ، وإنْ كنت تريد جاهاً سوَّدناكَ علينا ، وجعلناك رئيسنا ، وإنْ كنت تريد مُلْكاً ملكْناك .

فقال ﷺ : « والله ما بى ما تقولون ، ولكن ربى أرسلنى بالحق إليكم ، فإنْ أنتم أطعتُم فبها ، وإلاَّ فإنَّ الله ناصرى عليكم »[(١)] .

---

(١) أورده ابن هشام فى السيرة النبوية (١/٢٩٥ - ٢٩٧) ، أنه قد اجتمع ١٥ من كبار قريش عند الكعبة وأرسلوا إلى محمد ﷺ ليكلموه ، فعرضوا عليه الأموال والملك والشرف والجاه أو الطب إن كان له تابع من الجن . فقال لهم ﷺ : « ما بى ما تقولون ، ما جئت بما جئت به أطلب أموالكم ولا الشرف فيكم ولا الملك عليكم ولكن الله بعثنى إليكم رسولاً ، وأنزل علىَّ كتاباً .. فإن تقبلوا ما جئتكم به فهو حظكم فى الدنيا والآخرة ، وإن تردوه علىَّ أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بينى وبينكم » .

وكانت هذه المحاولة بينهم وبينه ﷺ لعل الأمر حين يكون سراً يتساهل فيه رسول الله ، فلما لم يجدوا بُغْيتهم قالوا : نتوسل إليك بمَنْ يحب ، فربما خجل أنْ يقبلَ منا ونحن خصومه ، فلنرسل إليه مَنْ يحبه ، فذهبوا إلى عمه أبى طالب ، فلما كلَّمه عمه قال قولته المشهورة : « والله ، يا عَمّ لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أتركَ هذا الأمر ما تركته ، حتى يُظهره الله ، أو أهْلِكَ دونه »(١)

فلما فشلت هذه المحاولة أيضاً أتَوْهُ من ناحية ثالثة ، فقالوا : ننتهى إلى أمر هو وسط بيننا وبينك : دَعْكَ من هؤلاء الفقراء ، واصْرِف وجهك عنهم ، ولا تربط نفسك بهم ، ووجِّه وجهك إلينا ، فأنزل الله : ﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ .. ﴿٢٨﴾ ﴾ [الكهف]

ثم بيَّن الحق سبحانه وتعالى أن الإسلام أو الدين الذى أنزله الله لا يأخذ أحكامه من القوم الذين أُنزل عليهم ؛ لأن رسول الله إنما أُرسلَ ليضع لهم موازين الحق ، ويدعو قومه إليها ، فكيف يضعون هم هذه الموازين ، فيأمرون رسول الله بأنْ يصرف وجهه عن الفقراء ويتوجَّه إليهم ؟

لذلك قال : ﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ .. ﴿٢٩﴾ ﴾ [الكهف] لأنه بعثنى بالحق رسولاً إليكم ، وما جئت إلا لهدايتكم ، فإنْ كنتم تريدون

---

(١) أورده ابن هشام فى السيرة النبوية (٢٦٦/١) معزواً لابن إسحاق أن يعقوب بن عتبة ابن المغيرة بن الأخنس حدَّثه أن قريشاً عندما طلبوا من أبى طالب أن يكف محمداً ﷺ عنهم فقال لابن أخيه : يابن أخى إن قومك قد جاءونى ، فقالوا لى كذا وكذا للذى كانوا قالوا له : فأبْقِ علىَّ وعلى نفسك ، ولا تُحمِّلنى من الأمر ما لا أطيق . فقال رسول الله ﷺ مقالته هذه . فقال أبو طالب : اذهب يا بن أخى ، فقل ما أحببت ، فو الله لا أسلمك لشىء أبداً .

توجيهى حسْب أهوائكم فقد انقلبتْ المسألة ، ودعوتكم لى أن أنصرف عن هؤلاء الذين يدعُون ربهم بالغداة والعشىّ وأتوجه إليكم ، فهذا دليل على عدم صدْق إيمانكم ، وأنكم لستم جادِّين فى اتباعى ؛ لذلك فلا حاجة بى إليكم .

ثم يقول تعالى : ﴿ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ .. (٢٩) ﴾ [الكهف] أى : ادخلوا على هذا الأساس : أن كل حَقٍّ ينزل من الله ، لا أن آخذ الحق منكم ، ثم أردّه إليكم ، بل الحق الذى أرسلنى الله به إليكم ، وعلى هذا مَنْ شاء فليؤمن ومَنْ شاء فليكفر .

والأمر فى هذه الآية سبق أنْ أوضحناه فقلنا : إذا وجدنا أمراً بغير مطلوب فلنفهم أن الأمر استُعمل فى غير موضعه ، كما يقول الوالد لولده المهمل : العب كما تريد ، فهو لا يقصد أمر ولده باللعب بالطبع ، بل يريد تهديده وتأنيبه .

وهكذا فى : ﴿ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ .. (٢٩) ﴾ [الكهف] وإلا لو أخذتَ الآية على إطلاقها لكانَ مَنْ آمن مطيعاً للأمر : ﴿ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن .. (٢٩) ﴾ [الكهف] والعاصى أيضاً مطيع للأمر : ﴿ وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ .. (٢٩) ﴾ [الكهف] فكلاهما ـ إذن ـ مطيع ، فكيف تُعذِّب واحداً دون الآخر ؟

فالأمر هنا ليس على حقيقته ، وإنما هو للتسوية والتهديد ، أى : سواء عليكم آمنتم أم لم تؤمنوا ، فأنتم أحرار فى هذه المسألة ؛ لأن الإيمان حصيلته عائدة إليكم ، فالله سبحانه غنىٌّ عنكم وعن إيمانكم ، وكذلك خَلْق الله الذين آمنوا بمحمد هم أيضاً أغنياء عنكم ، فاستغناء الله عنكم مَسْحوب على استغناء الرسول ، وسوف ينتصر محمد وينتشر دين الله دونكم .

وقد أراد الحق سبحانه أن يصيح رسول الله ﷺ بالدعوة فى مكة ويجهر بها فى أذن صناديد الكفر وعُتَاة الجزيرة العربية الذين لا يخرج أحد عن رأيهم وأمرهم ؛ لأن لهم مكانة وسيادة بين قبائل العرب .

ولحكمة أرادها الحق سبحانه لم يأتِ نصر الإسلام على يد هؤلاء ، ولو جاء النصر على أيديهم لقيل : إنهم ألفُوا النصر وألفُوا السيادة على العرب ، وقد تعصَّبوا لواحد منهم لَيسُودوا به الدّنيا كلها ، فالعصبية لمحمد لم تخلق الإيمان بمحمد ، ولكن الإيمان بمحمد خلق العصبية لمحمد .

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا .. ﴿٢٩﴾﴾ [الكهف]

والعذاب هنا لمن اختار الكفر ، لكن لماذا تُهوّل الآية وتُفخّم أمر العذاب ؟ لأن الإعلام بالعقاب وتهويله وتفظيعه والإنذار به لا ليقع الناس فى موجبات العقاب ، بل لينتهوا عن الجريمة ، وينأوْا عن أسبابها ، إذن : فتفظيع العقاب وتهويله رحمة من الله بالعباد ؛ لأن خَوْف العذاب سيمنعهم من الجريمة .

ومعنى (أعتدنا) أى : أعددنا ، فالمسألة منتهية مُسْبقاً ، فالجنة والنار مخلوقة فعلاً ومُعدَّة ومُجهَّزة ، لا أنها ستُعَدُّ فى المستقبل ، وقد أُعدَّتْ إعداد قادر حكيم ، فأعدَّ الله الجنة لتتسع لكل الخَلْق إنْ آمنوا ، وأعدَّ النار لتتسع لكل الخلق إنْ كفروا ، فإنْ آمن بعض الخلق وكفر البعض ، فالذى آمن وَفّر مكانه فى النار ، والذى كفر وفّر مكانه فى الجنة .

لذلك قال تعالى فى هذه المسألة : ﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [الزخرف]

إذن : فخلْق الله تعالى للجنة وللنار أمر منضبط تماماً ، ولن يحدث فيهما أزمة أو زحام أبداً ، بل لكلٍّ مكانه المعدّ المخصّص .

وقوله تعالى : ﴿ لِلظَّالِمِينَ .. ﴿٢٩﴾ ﴾ [الكهف] والظلم أن تأخذ حقاً وتعطيه للغير ، وللظلم أشكال كثيرة ، أفظعها وأعظمها الإشراك بالله ، لأنك تأخذ حَقَّ الله في العبادة وتعطيه لغيره ، وهذا قمة الظلم ، ثم يأتي الظلم فيما دون ذلك ، فيأخذ كل ظالم من العذاب على قَدْر ظُلْمه ، إلا أن يكون مشركاً . فهذا عذابه دائم ومستمر لا ينقطع ولا يفتُر عنه ، فإنْ ظلم المؤمن ظلماً دون الشرك فإنه يُعذَّب به ، ثم يُدخله الله الجنة ، إنْ لم يتُبْ ، وإنْ لم يغفر الله له .

وقوله تعالى : ﴿ أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا .. ﴿٢٩﴾ ﴾ [الكهف] السرادق ، كما نقول الآن : أقاموا السرادق أي : الخيمة . ومعنى سرادق : أي محيط بهم ، فكأن الله تعالى ضرب سرادقاً على النار يحيط بهم ويحجزهم ، بحيث لا تمتد أعينهم إلى مكان خالٍ من النار ؛ لأن رؤيته لمكان خَالٍ من النار قد تُوحي إليه بالأمل في الخروج ، فالحق سبحانه يريد أنْ يؤيسهم من الخروج .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾ ﴾ [الكهف]

الاستغاثة : صَرْخة ألم من متألم لمن يدفع عنه ذلك الألم ، كما قال في آية أخرى : ﴿ مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ .. ﴿٢٢﴾ ﴾ [إبراهيم] أي : حين تصرخون من العذاب لا أستطيع أنْ أزيل صراخكم ، وأنتم كذلك لا تزيلون صراخي .

فأهل النار حين يستغيثون من ألم العذاب (يُغَاثُوا) يتبادر إلى الذِّهْن أنهم يُغَاثُون بشيء من رحمة الله ، فتأتيهم نفحة من الرحمة أو

يُخفّف عنهم العذاب .. لا ﴿يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ .. ﴿٢٩﴾﴾ [الكهف] أى : فإنْ طلبوا الغَوْث بماء بارد يخفف عنهم ألم النار ، فإذا بهم بماء كالمهل .

والمهْل هو عُكَارة الزيت المغلى الذى يسمونه الدُّرْدِىّ ، أو هو المذاب من المعادن كالرصاص ونحوه ، وهذا يحتاج إلى حرارة أعلى من غَلْى الماء ، وهكذا يزدادون حرارةً فوق حرارة النار ، ويُعذّبون من حيث ينتظرون الرحمة .

وقوله تعالى هنا : (يُغَاثُوا) أسلوب تهكمىّ ؛ لأن القاعدة فى الأساليب اللغوية أنْ تخاطب المخاطب على مقتضى حاله ، فتهنئه حال فرحه ، وتعزيه حال حزنه بكلام موافق لمقتضى الحال ، فإنْ أخرجتَ المقتضى عن الحال الذى يطلبه ، فهذا ينافى البلاغة إلا إنْ أردتَ التهكُّمَ أو الاستهزاء .

إذن : فقوله تعالى عن الكفار : ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ .. ﴿٢٩﴾﴾ [الكهف] تهكّم بهم ، لأن الكلام فيه خرج عن مقتضى الحال ، كما يقول الوالد لولده الذى أخفق فى الامتحان : مبارك عليك السقوط .

ومعنى : ﴿يَشْوِى الْوُجُوهَ .. ﴿٢٩﴾﴾ [الكهف] أن الماء من شدة حرارته يشوى وجوههم ، قبل أن يدخل أجوافهم : ﴿بِئْسَ الشَّرَابُ .. ﴿٢٩﴾﴾ [الكهف] أى : الذى يغاثون به ﴿وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾﴾ [الكهف] المرتفق هو الشىء الذى يضع الإنسان عليه مِرْفقه ليجلس مُستريحاً ، لكن بالله هل هناك راحة فى جهنم ؟

إذن : فهذه أيضاً من التهكّم بهم وتبكيتهم ، كما قال تعالى

مخاطباً جبابرة الدنيا وأعزّتها وأصحاب العظمة فيها ممَّنْ عَصَوْا الله :

﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ ﴾ [الدخان]

والحق سبحانه وتعالى يتكلم فى هذه المسألة بأساليب متعددة ، منها استخدام كلمة (النُّزُل) وهو ما يُعد لإكرام الضيف ، كما فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً ﴿١٠٧﴾ ﴾ [الكهف]

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلاً مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾ ﴾ [فصلت]

فالذى أعَدَّ هذا النُّزُل وهذه الضيافة هو الغفور الرحيم ، والذى يُعد نُزُلاً لضيفه يُعِدّه على قَدْر غنَاه وبَسْطة كرمه ، فما بالك بنُزل أعدّه الله لأحبابه وأوليائه ؟

وذيّل الآية بقوله : ﴿ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾ ﴾ [فصلت] لأنه ما من مؤمن إلا وقد عمل سيئة ، أو همَّ بها ، وكأن الحق سبحانه يقول : إياك أنْ تذكرَ ما كان منك وأنت فى هذا النُّزُل الكريم ، فالله غفور لسيئتك ، رحيم بك ، يقبل توبتك ، ويمحو أثر سيئتك .

والحديث عن النُّزل هنا فى الجنة ، فهى محلُّ الإكرام والضيافة ، فإن استخدم فى النار فهو للتهكُّم والسخرية من أهلها ، كما قال تعالى : ﴿ وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ ﴾ [الواقعة] فقد استخدم النزل فى غير مقتضاه .

بعد أن جاء الأمر الإلهى فى قوله تعالى : ﴿فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ .. (٢٩)﴾ [الكهف] أراد سبحانه أنْ يُبيِّن حكم كُلٍّ من الاختيارين : الإيمان ، والكفر على طريقة اللَّفِّ والنشر[1] ، وهو أسلوب معروف فى العربية ، وهو أن تذكر عدة أشياء ، ثم تُورد أحكامها حَسْب ترتيبها الأول ، أو تذكرها مُشوَّشة دون ترتيب .

ومن النوع الأول الذى يأتى فيه اللَّفُّ والنشْر على الترتيب قوله تعالى : ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ .. (٧٣)﴾ [القصص] أى : لتسكنوا فى الليل ، وتبتغوا من فضل الله فى النهار .

فالترتيب إذا كان الحكم الأول للمحكوم عليه الأول ، والحكم الثانى للمحكوم عليه الثانى وهكذا ، ومن ذلك قول الشاعر :

قَلْبى وَجَفْنى وَاللسان وخالقى

هذه أربع مُخْبر عنها ، فما قصتها وبماذا أخبرنا عنها ؟ يقول :

قَلْبى وَجَفْنِى وَاللسَانُ وَخَالِقِى   رَاضٍ وبَاكٍ شَاكِرٌ وغَفُورُ

فتكون على الترتيب : قلبى راضٍ ، وجفنى باكٍ ، ولسانى شاكر ، وخالقى غفور .

ومرة يأتى اللف والنشر على التشويش ودون ترتيب ثقة بأن نباهةَ السامع ستردُّ كل شىء إلى أصله[2] كما فى الآية التى نحن

---

(١) اللف والنشر : هو أن يذكر شيئان أو أشياء ، إما تفصيلاً بالنص على كل واحد أو إجمالاً ، بأن يؤتى بلفظ يشتمل على متعدد ، ثم يذكر أشياء على عدد ذلك ، كل واحد يرجع إلى واحد من المتقدم ، ويفوض إلى عقل السامع رد كل واحد إلى ما يليق به [الإتقان فى علوم القرآن ٣/٢٧٩ - ٢٨١] .

(٢) وذلك مثل قوله تعالى : ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ (١٠٦) وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١٠٧)﴾ [آل عمران] .